الحداثة المتواصلة في الوطن العربيّ

الأب جون دنوهيو اليسوعيّ*

سأتناول موضوع العلاقة القائمة بين التقليد والحداثة في مضمار «الثقافة والمجتمع»، من الناحية السياسيّة بوجه خاصّ. وهذا الموضوع، في الواقع، يماثل الإشكاليّة التي تعرّضنا لها عندما بدأنا بحوثنا في «مركز الدراسات للعالم العربيّ المعاصر» منذ خمسة وعشرين عامًا، وكانت بعنوان «الثقافة العربيّة والتغيير». وقد قامت دراستُنا على مجموعة مقالات ظهرت في صحفٍ ونشراتٍ ومجلاّت دوريّة عربيّة، قسّمناها فئات ثلاث: شعبيّة ودينيّة وفكريّة.

ولو أردنا أن نقدّم الموضوع المطروح أعلاه في إطار الثقافة والتغيير، تبعًا للصيغة التقليديّة المطروحة منذ أكثر من قرن، لوجدنا أنّه كان على العرب اختيار واحدٍ من ثلاثة طرق:

١ - إمّا أن يتّبعوا نموذج الحداثة الغربيّ بدون تحفّظ.

٢ - وإمّا أن يحافظوا على الأوضاع كما كانت عليه، رافضين مادّيّة الغرب.

٣ - وإمّا أن يتخيّروا عناصر من الحداثة يمكن أن تتلاءم وثقافتنا.

وبطبيعة الحال، نجد أنّ غالبيّة الكتّاب الذين عالجوا هذه الإشكاليّة هم من أنصار الطريق الثالث.

أمّا قولي إنّ «الصيغة تقليديّة»، فمردّه إلى أنّ الأفكار المعاصرة هذه

(*) مدير «مركز الدراسات للعالم العربيّ المعاصر»، جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

قد خلص إليها الشباب العثماني في القرن المنصرم. ومثال على حالتها ما جاء في افتتاحية أسبوعية اللواء الإسلامي بتاريخ ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٩٨، بعنوان: «القرن الحادي والعشرون هو قرن الصحوة للحضارة الإسلامية»:

«أكّد فضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية في حديثه لـ اللواء الإسلامي أنّ التحدّيات التي تواجه الأمّة الإسلامية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين كثيرة وثقيلة، وأنّها تحتاج من المسلمين اليقظة الكاملة والأخذ بمستجدّات العصر واللحاق بركب التكنولوجيا وخاصّة أنّ القرآن دين العقل وإيقاظ الهمم». وأضاف قائلًا: «إنّ هناك دولًا إسلامية بدأت تحقّق إنجازات في هذا السبيل بما يؤكّد أنّ المسلمين في القرن الحادي والعشرين سوف ينافسون الدول المتقدّمة في مجالات التقدّم الحضاري».

أمّا في ما يختصّ بالمقاربات الفكرية والشعبية والدينية، فالخطاب الفكريّ، إبّان الأعوام ١٩٤٥-١٩٥٠، كان مختلفًا عن الدينيّ. وفي الأعوام ١٩٥٠-١٩٦٠، دخلت الأيديولوجيّة العربيّة الاشتراكيّة الخطابَ الفكريّ وامتصّت عناصره وعناصر الخطاب الدينيّ على السواء. غير أنّنا نجد، في الأعوام ١٩٨٠-١٩٩٠، أنّ الخطاب الفكريّ قد فُصل عن الدينيّ من دون أن يختلفا. لذا يصعب علينا أحيانًا أن نصنّف بعض الخطب. فالخطاب الدينيّ يلازم الخطاب الليبراليّ، والإسلام يحتلّ مكانًا بارزًا في الخطب جميعًا[1]. ولكن أترانا إزاء حالة رفض للحداثة وعودة إلى التقليد؟ لا أظنّ ذلك!.

لقد تقصّيت قاعدة المعطيات التي جمعناها من الصحافة منذ العام ١٩٩٠ في شأن الإحالات على الحداثة. فوجدت أنّ تلك الإحالات متواترة وتشمل مختلف الميادين. فهنالك دعوات إلى تحديث كلّ شيء:

---

(١) المؤتمر القوميّ العربيّ الثالث في بيروت، الحياة، ٢٩/٤/٩٢، ص ١٥.

نظام القرابات والجيش والمؤسسات التربوية وحتى أساليب الوعظ. وهنالك مَن يتكلّم أيضًا على المحدثين التقليديين. على أنّ ذلك يقودنا إلى أن نطرح السؤال التالي: ما هو معنى الحداثة الحقيقيّ؟ ويمكننا أن نطرح أيضًا سؤالين آخرين: أترانا نعيش، هنا في الشرق الأوسط، زمن ما بعد الحداثة؟ وهل يمثّل الخمينيّ والجماعات الإسلاميّة انقطاعًا عن الحداثة وعودة إلى الإسلام؟

كتب أكبر أحمد ما تعريبه: «إنّ ما بعد الحداثة، في المجتمع الإسلاميّ، يعني تأكيدًا للهويّة القوميّة أو الإسلاميّة إزاء هويّة غربية مستوردة أو غربيّة. إنّه رفض للحداثة وبروز قيادة شابّة ساخطة وبدون ملامح. كما أنّه انفصام ثقافيّ، وشعور بدخول مدّة تاريخيّة غامضة. وهو، قبل كلّ شيء، وعي عديم القوّة ونظرة عدائيّة إلى وسائل الإعلام الغربيّة القويّة والمنتشرة»[٢].

لا أظنّ شخصيًّا أنّ الحداثة قد رُفضت. فهنالك رفضٌ للقيادة المحلّيّة والسياسة الخارجيّة والأيديولوجيّة ووسائل الإعلام. ذلك أنّ الشعارات القديمة قد استُبدلت بأخرى حديثة وحسب. هنالك إذًا حالة ضياع. فما من شيء تمّ تبعًا للوعود التي قُطعت. ولكن، على الرغم من ذلك كلّه، تُتابع الحداثةُ تقدّمها.

أمّا في الأوساط السياسيّة العربيّة، فليست الحداثة التي رُفضت، بل تطبيعُ العلاقات بدولة إسرائيل. ففي نهاية هذا القرن، نجد أنّ جميع التهديدات صادرة عن إسرائيل وأنّ الأخطاء ملقاة على عاتقها. ومثال على التشدّد تجاه الانفتاح على إسرائيل، هو طرد الشاعر أدونيس من اتّحاد الكتّاب العرب في سورية لأنّه شارك في اجتماع مع الإسرائيليّين. وحاليًّا، يسعى بعضهم لرفع دعوى على لطفي الخولي ومجموعة كُوبنهاغن لأنّهم حاولوا التوصّل إلى سلام عادل.

---

(٢) Akbar S. Ahmed, *Postmodernism and Islam: Predicament and Promise*, Rutldege, London/NY, 1992, p. 32.

رسم فؤاد عجمي، في كتابه الأخير[٣]، صعودًا وهبوطًا لدى جيلَين من العرب المثقّفين المنفتحين والتقدّميّين. جميع أولئك كانوا ملتزمين في مشاريع الوحدة العربيّة. أمّا الآن فهم في حالة ضياع وتشوّش. فبعضهم يعيش في المنفى وبعضهم انتحر وبعضهم الآخر يهزأ بعمليّة التطبيع مع إسرائيل.

كتب عجمي ما تعريبه:

«هنالك عالَم كامل أفلت من بين أصابع جيلَين من العرب توصّلا إليه في الخمسينات والستّينات. ونمّة مدينة كانت في نظرهما بمثابة بيتيهما الثقافيّ الجماعيّ، هي بيروت. ضاعت منهما. والثقافة السياسيّة ذات الطابع القوميّ العربيّ التي غذّتهما ووصلت إليهما واثقةً بنفسها وقبلاها كاملةً وبدون أن يتفحّصاها، تلك الثقافة سارت بهما في طريق مسدود وتحوّلت أداةً طغيان وغطاءً له ولعبةً بيد الحكّام المستبدّين. فما من سنيّة أحزان تُعيد هذين الجيلَين إلى حقائق عالمهما. لذا قد تُوفّر الحملةُ على مساعي السلام الجديد فرصةً يتحيّزها رجال العروبة التقليديّة ونساؤه لكي يسترجعوا أرضهم الضائعة»[٤].

الأشخاص الفاعلون يتغيّرون، والأيديولوجيّات تتغيّر هي أيضًا، ومثلها الشعارات. ولكنّ التطوّر لا يلبث أن يستمرّ بعد كلّ انقطاع يصيبه.

(نقله إلى العربيّة
أ. صلاح أبو جوده)

---

(٣) Fu'ad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odessy*, Pantheon, NY, 1998, p. 283.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨٣.